فضل الخيال

بقلم الأستاذ صلاح الدين الأيوبى

يقول باسكال "إن الخيال قوة خارقة ركبت فى الانسان طبيعة ثانية".

وهو يقصد الخيال المنشئ أى الفكرة المنشئة وليس الخيال المعيد الذى يقتصر عمله على استعادة ما هو غائب من مثيرات الحواس الخمسة . فانك حين تستعيد فى ذهنك صورة وجه صديق لك أو تستعيد فى ذهنك صوته فانما تستعمل ذلك الخيال المعيد . وهو يتقوى بالمران ويصبح أقدر على استعادة المحسوسات بغير واسطة الحواس .

أما الخيال المنشئ فهو كما يدل عليه اسمه ما يؤلف صورة جديدة . فاذا تخيلت نفسك فى رداء غائدى فانما هذا هو الخيال المنشئ . وواضح أن هذه الصورة بذاتها ليست معادة ، ولكنها وإن كانت منشأة إلا أن عناصرها التى تتكون منها كانت لدينا قبل إنشائها .

وقد تبدو هذه الصورة جديدة ولكنها فى الواقع ليست جديدة ولا عناصرها جديدة ولا خطوطها ولا ألوانها ، إنما الجديد هو ترتيب هذه العناصر لأن كل عمل الخيال المنشئ أنه يفرغ ويرتب العناصر المعروفة فى نماذج وقوالب مخالفة للنماذج والأوضاع التى نعهدها .

ونصيب الانسان من الخيال المنشئ فى الحياة وافر . فهو يلازمه منذ الطفولة . فحين يلعب يتخيل قطعة من خشب حصانا يركبه أو بندقية يطلقها أو سيفا يلوح به فى الفضاء ويحارب به خصما ، هو أيضا ، من نسيج الخيال . وحين يتكلم يستعمل خياله أيضا ، فيصف شيئا كأنما كان انسانا ناطقا يكلمه ويحاوره .

ذكرت طفلة ذات خيال خصب وعمرها ست سنوات ، لأمها ، يوما عقب عودتها من نزهتها أنها رأت ثلاثة سباع تجرى حول الحديقة التى كانت تتنزه فيها . فنهرتها أمها لهذه الأكذوبة ، وطلبت اليها أن تخلو بنفسها وتستغفر ربها . فلما جاء أبوها سألها ماذا كنت تفعلين يا بنيتى ؟ قالت كنت أستغفر الله كما قالت لى أمى . قال هذا حسن . فقالت وماذا تظن أن الله قال لى ؟ فسألها أبوها ماذا قال لك بالله ؟ قالت : إنه قال لى "لاتزعجى نفسك يا بنيتى العزيزة : فكثيرا ما ظننت أنا نفسى ، هذه الكلاب ذات الشعر الكثيف سباعا ، تجرى حول الحديقة".

ويستعمل الانسان الخيال المنشئ أثناء حياته اليومية كما يستعمله السياسيون أثناء عقد المؤتمرات وكما يستعمله رجال الأعمال عند اختيار معاونيهم . ويسمى الخيال فى هذه الحالة فراسة . ويقال إن النساء أقوى خيالا من الرجال ولكن القول مفتقر إلى ما يدعمه علميا .

أن يبدو فيه الجديد لا نهاية له ، كما تبدو كل دقيقة أنها جديدة لأن كل دقيقة ليست الدقيقة الأخرى . فهى تختلف عنها من حيث وقت كل منها ومن حيث كل ما يحتمل أن يدل عليه وقت كل منها ومن حيث كل ما يحتمل أن يمتد من الحوادث فى وقت كل منها .

انك لا ترى فقط بخيالك المنشىء وتسمع به وتلمس به وتذوق به وتشم به ، بل انك أيضا تؤدى به كل عملية عقلية . أى أنك تستطيع أن تفكر بخيالك ، لأن التخيل ليس قوة خاصة وإنما هو طريق لاستعمال أى قوة من قوانا بقصد الوصول إلى نتيجة "تبدو جديدة" فالتفكير بالخيال إذن معناه محاولة كل طريقة ممكنة فى تنظيم أفكارك وتوضيحها لنفسك والتعبير عنها وذلك باستعمال التفكير السارح — أى الخواطر ويسميها فرويد التفكير السار — إلى جانب التفكير الواعى بغية الاهتداء إلى فكرة لم تكن قد فهمتها أو لم تكن قد عبرت عنها لنفسك تعبيرا واضحا . وإذا اعتبرنا الشعر ألطف أنفاس المعرفة كما يقول الشاعر الانجليزى وردزورث فكذلك يمكن اعتبار التفكير الخيالى ألطف أنفاس الروى ...

فهذا الوميض الذى لا يأخذ من التعقل قوانينه حين أنه ليس خاليا من التعقل ، هذا الخليط من التفكير السار والتفكير الواعى ، من الخيال والتروى هو الذى يقصده باسكال فى قوله إن الخيال هذه القوة الخارقة قد ركبت فى الانسان طبيعة ثانية . لأن هذا التفكير هو أكبر قوى الانسان ، وهو الذى يعطيه كل شىء ، السعادة والشقاء ، وهو الذى يحدد مدى نصيبه من الوصول والنجاح .

إن هذا النوع من التفكير وحده هو الذى يجعلك تعمل . فاذا احببت خيالا نظرا لنفعه وضرورته فانك عن وعى أو عن غير وعى تعتقه . وقد قيل إن ما يدخل العقل يخرج من العضل لأن الفكرة هى المحرك الحقيقى للانسان فى حياته . ومعنى هذا أن من اعتنق فكرة فقد حاز من حيث لا يدرى إرادة تحقيقها لأنها هى نفسها تحمل بين طياتها دافع تنفيذها .

ويتضح من ذلك أن القول بأن الارادة شىء قائم بذاته إنما هو قول خاطئ فليس صحيحا أن يقال (يجب أن يكون عندى إرادة) لأن الواقع يقضى أن يقال : إنى أملك الإرادة لو أنى رغبت فى شىء ما ولكى أرغب فيه يجب ان أتخيل هذا الشىء .

فالارادة إذن هى نتيجة الخيال المنشئ وليست قائمة بذاتها . فاذا تخيلت أنك قوى واعتقدت أنت نفسك فى قوتك وتصرفت من الآن كأنك رجل قوى فانك رجل قوى فعلا .

فالخيال هو نقطة البداية لقوى لا تقهر ، باعتباره واضع ومنفذ الأفكار التوجيهية فى حياتنا . وهذا ما يسمى الإيحاء الذاتى .

ذلك أن هذا الخيال المنشئ يحدث فينا عاطفة ما وهذه العاطفة تثير إرادة ، وكلها تكمن فى العقل الباطن تتحين من العقل الواعى إذنا صريحا للظهور . فاذا تعذر عليها أن تظفر بهذا الإذن الصريح ظلت تترقب فرصة من غفلة العقل الواعى — الذى كبتها — فتعبر عن

ويختلف الخيال المنشئ عن عملية التقدير التي يمارسها الخبير إذ أنها تعتمد على التفكير الحقيق المقيد بالمقتضيات فيقدر الخبير التكاليف بالرجوع إلى قوائم الأسعار ويربط الزمن من واقع معدل معين . فالتفكير الحقيق من العقل الواعي أما الخيال المنشئ فمن العقل الباطن .

ومما لا شك فيه أن القطعة الفنية التي يتخيلها الفنان ليست كالتي يتخيلها أحد أفراد الناس . وأن النظرية العلمية التي يتخيلها عالم ليست كالتي يتخيلها غير العالم . وإذا كان لنا أن نستعرض خيال بضعة أفراد رأينا كلا منها يختلف عن الآخر تمام الاختلاف شكلا وموضوعا .

وهكذا ننتهي إلى أن الخيال المنشئ لكي يكون ذا نتيجة دسمة ومفيدة وجديدة يجب توافر ثلاثة أمور جوهرية :

١ — الاهتمام بالموضوع محل التخيل ، والشغف به ، والاخلاص له ، وتعتبر هذه الخطوة تمهيدا للخطوة التالية .

٢ — معرفة الموضوع وتعلم تفاصيله والاحاطة بأسراره .

٣ — ممارسته لإثراء التجربة وتنمية الخبرة واتقان الأداء .

فإذا كان عليك أن تضبط آلة ما فإن دراياتك بالآلات ومرانك السابق على حلها وعلى تركيبها وضبطها يجعلانك قادرا ، الآن ، على أن ترى في ذهنك الحركات الصحيحة والأعمال المنتجة المفيدة التي عليك أن تؤديها قبل أن تؤديها بالفعل ، وهكذا يصبح خيالك المنشئ دسما ومفيدا ومنتجا .

والحضارة الحالية — وكذلك ستكون الحضارة المستقبلة — مدينة لهذا الخيال المنشئ لأن معظم الاختراعات يرجع اليه حين يكون مجرد خواطر هائمة في سماء عقول المخترعين الشغوفة بالمعرفة والممكنة بالتجربة . فالاختراعات هي النهاية الجديدة التي ينتجها الخيال المنشئ .

وإذا قيل إن النهاية جديدة فإنما يقال جديدة بشيء من التحفظ . لأن انتاج نهاية جديدة معناه الخلق ، معناه أن العقل يخلق حين أن العقل لا يستطيع بالتأكيد أن يخلق شيئا جديدا . فكل جديد هو مؤلف من أجزاء كانت موجودة قبل ظهورها بشكلها الأخير فإذا نحن نظرنا إلى أي اختراع من الاختراعات الحديثة ، كالساعة أو الطيارة أو التلفون أو الراديو فاننا نجد أن مادتها كانت موجودة منذ الأزل ولم يكن يعدو إنشاء إحداها حد ترتيب عناصرها ترتيبا خاصا . فالعقل البشري لا يستطيع أن يخلق أشياء . ولا حتى يخلق أفكارا . إنما هو يعرفها . ويستثيرها فتبدو حين يهتدي اليها أنها جديدة لأن المجال الذي يمكن

نفسها بالظهور . لذلك قيل إن الخيال المنشئ هو قطب مصيرنا وكأنه يرتب فينا طبيعة ثانية لأنه سيدفعنا إلى ما نشتهي من حيث لا ندري بأن يوحي لينا ماذا نفعل وماذا نقول وفي هذا يقول الشاعر وقد فاجأ نفسه أمام دار حبيبته :

ما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

لا تقل إذن بغير جدوى (انه يجب أن أفعل أمرا ما لأني يجب أن أفعله) فان هذه العبارة لا تترك أثرا في العقل الباطن وانما قل : لكي أرغب يجب أن أرى الصورة المحبوبة لما أرغبه أي أن أتخيل نتيجة العمل الذي أريد أن أعمله .

وعبرة ذلك ألا ترحم مخيلتك بما ليس فيه نفع لك ولا بما فيه ضرر لك من الخيالات ، فان في هذا تبديدا لحيويتك وتعطيلا لرحلتك الى نصيبك من القوة والسعادة . هو تبذير في حظك من الدنيا والآخرة ، هو إسراف في سر هذا الحظ ألا وهو قواك العقلية بشغلها فيما هو خارج عن حاجتك وتوزيعها على ألف خيال وخيال وكلها بين التافه والسام وكأنك تذرو هذه القوى النفيسة رأس مالك في الدنيا والآخرة بين أشواك المغريات والشهوات الى غير رجعة .

فأما فيما يتعلق بالخيالات "التافهة" والمهايات العابثة غير الثابتة التي تتطفل على حياتك فتختلس حيويتك فانما تخلعها عن نفسك لأنها تشغل من عقلك الباطن نواحي العيون من ينابيع قابليتك وحيويتك ونشاطك وأولى أن يطاح بها ليشغل مكانها المقدس خيالات مزدهرة واتجاهات واضحة مقررة ثابتة تعتبر أهدافا تهدف اليها وسياسة تنتهجها . وليكن شعارك قول الشاعر :

أحب من الأشياء من كان فائقا وما الدون إلا من يميل لدون

وأما فيما يتعلق بالخيالات "السامة" التي تمخض عن تخييب ما تصالح الناس على مقته أو احترام ما شاع احتقاره فهي طريق الموت الأدبي إن الخيال الوضيع "السام" هو مفتاح سر التدهور الخلقي خطوة خطوة . فقد تغوى الانسان شهوة من الشهوات لإتيان الموبقة فهو يفكر بخياله مستعرضا أراءه في هذه الموبقة ويفسرها بأنها ليست موبقة وأنها ليست أكثر من تجربة . ويبحث عن مبررات تبررها فيهتدي الى فكرة أخرى هي أن الانسان لكي يكون فكرة صحيحة عن الدنيا يجب أن يجرب كل شيء . سواء كان خيرا أو شرا وقد يهتدي الى حجة تمحو صفة القبح عن العمل الذي يغريه كالسرقة فيقول إنما أنا لأعطي الفقراء آخذ . أو يقول إني أحفظ للمالك ماله من عبث العابثين حتى إذا طلبه كان له . أو يقول ولو رآني المالك لأباح عملي . ولو أنك قلت له إن هذه الآراء التي يستعرضها لنفسه ويتناولها بالتفسير هي التي تؤدي به الى السرقة وهي التي تخلق منه لصا لانتفض فزعا من هذا المصير ولكنه بعد أن يسرق يسهل عليه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

والانسان صديق خيالاته وهى صفاته التى يعاشرها .

واذا ضعفت خيالاتك المرشدة أو طغت عليها فى ذهنك خيالات جديدة فاختلط بعضها ببعض وانطمست معها سياستك التوجيهية فدونك فورا والضياء تبعثها ساطعة فى أرجاء الخيال الرائد فهو روح الارادة وأنت بذلك تنعش روحها ، إذا خبت . اسهر دائما على ازدهار هذا الخيال ، واحفظه من التشويش ، ومن التشريد وحذار واهماله . واحتفظ بكل ما يقويه ويؤيده .

فما يقوى هذه الخيالات ، أن تنفلغل اليها فى أعماق نفسك لتقدرها وتقومها وتسليها بالتوضيح . وتعبر عن تفاصيلها بصوت مسموع . ففضلا عن ما يقدمه هذا الإجراء من الاثراء لقوتك على التركيز والتعمق فى الفكرة فانه يمكن عقلك الباطن من تسجيل ما فى الخيالات من إيحاء عن طريق الأذن كذلك . وستجد فى صوتك سحرا يبعث فى الأذن سرا يقوى به التحمس للفكرة والانجذاب لتحقيقها .

ومما يقوى هذه الخيالات كذلك ، ألا تتكلم عن إيحائك الذاتى باسناده للمستقبل فلا تقل (إنى سأعمل هذا الشيء) وانما قل إنى قررت أن أعمل كذا أو قل إنى أعمله فعلا . فيبدو الأمر واقعا مقررا ذلك لأن الإيحاء الذاتى يتطلب ألا تستعمل أملا يحتاج الى تحقيق وانما يتطلب أثرا لا ينقصه إلا التأييد .

ومما لا شك فيه أن تأييد ما تريد أن يحدث كما لو كان أمرا موجودا فعلا هو أقرب الى النفس من مجرد عرض الأمل الذى لا يزال يحتاج إلى اجراء ليدخل فى دور التنفيذ .

ومما يقوى هذه الخيالات كذلك ، السكوت فى موضعه . كما لو لمست من محادثك روح انتقاد وتجريح . أو لمست فيه انه يتشكك فى قدرتك أو لمست فيه انه انما يبغى فى الاستماع اليك لمجرد التفكه بافكارك . فاحبس كلامك عن هذا المحادث المهذار وتصور أن سكوتك سلاح عند شفرته يتحطم هذره وهذيانه . اسكت فالسكوت من ذهب لأنه هو طريقك للنجاح . ولا تتصحل إذن إلا بمن يؤمن انك جدير ان تكون وفق ما تشتهى وتريد وانك مشكور على ما ابتدعت من مثل واهداف فأمثال هؤلاء الخيرين يعتبرون نعمة لأنفسهم ولك ، وسينتقل إليهم هم انفسهم أثر هذه الفكرة الطيبة التى هيمنت على شخصيتك فتهيمن هى أيضا بالايحاء ، عليهم ، وكأنك الزهرة الزكية التى تعطر ما يحيط بها .

قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز "إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" فانظر كيف يكون الله فى معية بعض الناس ! وأى قوة هذه التى تلازم هؤلاء الناس ! انها بفضل الخيال !

صلاح الدين الأيوبى